الأمين والمأمون

من أشهر الإخوة الأنداد في التاريخ، يتواجد ابنا الخليفة العباسي الأشهر هارون الرشيد: محمد الأمين وعبد الله المأمون.

ولد الاثنان في نفس العام 170 هجريًّا، كان الأمين ابن الزوجة المفضلة لهارون الرشيد، وهي زبيدة بنت جعفر، بينما كانت والدة المأمون فارسية، وتدعى مراجل، وهنا كان الصراع الأول بين العرب والفرس على ولاية العهد.

استطاعت زبيدة بنت جعفر التأثير على زوجها هارون الرشيد، وجعله يعطي ولاية العهد للأمين، وهو ما فعله هارون بالفعل في العام 186 من الهجرة حج الرشيد ومعه أبناؤه الأمين والمأمون، وهناك في البيت الحرام أخذ عليهما المواثيق المؤكدة بأن يخلص كل منهما لأخيه، وأن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد إليه من بلاد المشرق، ثغورها وكورها وجندها وخراجها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها وبريدها، على أن تكون ولاية العهد للأمين، وسجَّل الرشيد هذه المواثيق على شكل مراسيم وعلَّقها في الكعبة، لتزيد في قدسيتها، ويؤكد تنفيذها كما كتب منشورًا عامًا بهذا المعنى للآفاق وسائر البلدان، وبذلك ضمن العرب الخلافة للعربي النسب وهو الأمين، بينما ضمن الفرس زعامة الشرق بوجود المأمون.

تولى الأمين الخلافة بعد وفاة والده، وهو ابن ثلاثة وعشرين عامًا، لم تفلح تدابير هارون الرشيد والتي اتخذها في حياته من منع حدوث الفتنة بين الشقيقين، فقد أدى تولي الأمين الخلافة إلى إثارة الفتنة بينه وبين أخيه المأمون، وما أذكى نار هذه الفتنة وقوع التنافس بين رجلين قويين وكلاهما يدعى "الفضل"، كان أولهما هو الوزير الفضل بن الربيع الذي يسيطر على الأمين، والآخر هو الفضل بن سهل الذي

يسيطر على المأمون، بالإضافة إلى اتخاذ العنصر العربي والفارسي من ابني الرشيد رمزًا للصراع بين العرب والعجم، والتفاف كل فريق حول صاحبه ومحاولة إثبات كل طرف قوته على حساب الآخر والاستيلاء على السلطة والتفرُّد بها؛ فالعرب يريدون استمرار تفوقهم وسلطانهم، أما الفرس فيريدون استعادة أمجادهم القديمة كمملكة كبرى وبناء إمبراطورتيهم من جديد.

بدأ النزاع على شكل مراسلات وسفارات متبادلة بين الأخوين حول مشكلة العهد المعلَّق في الكعبة؛ فالمأمون يرى التمسك بنصوص هذا العهد الذي يقضي بالاستقلال بشؤون خراسان خلال حكم أخيه الأمين، أما الأمين فيرى نفسه خليفةً للمسلمين، ويستطيع التصرف في أمور خراسان، كما تقضي بذلك المصلحة العامة، وأن النص على ولاية المأمون لخراسان، لا يعني استقطاع هذه الولاية من الخلافة نهائيًّا، بل ينبغي أن يكون للخليفة شيءٌ من النفوذ، وذلك بأن يضع على خراسان بريدًا لهذا طالب الأمين بوضع نظام للبريد تابع له في خراسان، لكن المأمون رفض طلبه وأصر على الاستقلال بخراسان.

لا شك أن مطامع رجال الحاشية في بلاط كلٍّ من الأمين والمأمون، كانت من العوامل التي زادت في اتساع الخلاف بين الأخوين؛ فالفضل بن الربيع نصح الأمين بأن يستدعي أخاه المأمون إلى بغداد، حتى يظفر به كرهينة ويفصل بينه وبين جنده، وعلى الجانب الآخر كان الفضل بن سهل يوعز إلى المأمون بالاعتذار عن الذهاب إلى بغداد، بحجة أن أمور خراسان تستدعي البقاء فيها، وهنا طلب الأمين من المأمون أن يتنازل له عن بعض كور خراسان، بحجة أن مال خراسان يكفيها، أما مال العراق فلا يكفيه، إلا أن المأمون رفض ذلك الطلب وغضب الأمين من رفض المأمون لمطالبه وأرسل إليه رسالةً يخيره فيها بين

الإذعان لشروطه أو التعرض لنار لا قبل له بها، ولكن المأمون لم يأبه لهذا التهديد، ورد عليه بأنه لا يخشى في الحق لومة لائم.

استطاع الفضل بن الربيع إقناع الأمين بعزل أخيه المأمون من ولاية العهد، وأن يجعلها في ابنه موسى بن الأمين، ثم ما لبث أن خلع أخاه المؤتمن من ولاية العهد، وأعلن الأمين البيعة بولاية العهد لابنه موسى، وسماه "الناطق بالحق"، وأمر بالدعاء له على المنابر بعده، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن، وبذلك يكون قد نكث عما أخذه عليه أبوه الرشيد من عهود ومواثيق.

أثار موقف الأمين من أخيه المأمون غضب أهل خرسان، فانحازوا إلى المأمون ضد أخيه، وكان على رأس المؤيدين هرثمة بن أعين، قائد الجند، وطاهر بن الحسين، الذي خرج على رأس جيش كبير معظمه من الفرس من خراسان، وفي المقابل جهز الأمين جيشًا مكونًا من ثمانين ألف مقاتل معظمهم من عرب البادية، وجعل عليه علي بن عيسى، وكان يكره أهل خراسان لأنهم دسوا عليه عند الرشيد فعزله من ولاية خراسان وحبسه، حتى أطلقه الأمين واتخذه قائدًا لجيشه.

التقى الجيشان على مشارف "الري" ودارت بينهما معركةً عنيفةً كان النصر فيها حليفًا لجيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين، وقتل علي بن عيسى، قائد جيش الأمين، وأعلن طاهر بن الحسين خلع الأمين، ونادى بالبيعة للمأمون بالخلافة، فأرسل الأمين جيشًا آخر قوامه عشرون ألف مقاتل، وجعل على رأسه عبد الرحمن بن جبلة الأبنادي، لكنه لقي هزيمةً منكرة، وقُتل الكثير من جنوده، وما لبث أن قتل هو نفسه في النهاية.

أرسل الأمين جيشًا ثالثًا بقيادة أحمد بن مزيد على رأس أربعين ألف مقاتل من عرب العراق، ولكن استطاع طاهر بن الحسين، أن

يبث جواسيسه داخل ذلك الجيش، فأشاعوا الفرقة بين قادته وجنوده، حتى اقتتلوا وانسحبوا عائدين قبل أن يلقوا خصومهم.

لم يستطع الأمين أن يجهز جيشًا آخر لملاقاة أهل خراسان، بعد أن رفض الشاميون السير معه، وانضم عدد كبير من جنوده وأعوانه إلى خصومه وفر كثير منهم إلى المدائن.

سادت الفوضى والاضطرابات بغداد عاصمة الخلافة، حتى قام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، بانقلابٍ ضد الأمين، وأعلن خلعه من الخلافة وحبسه هو وأمه زبيدة بنت جعفر في قصر المنصور، وأعطى بيعته للمأمون، لكن فريقًا من أنصار الأمين استطاعوا تخليصه من الأسر، وأعادوه إلى قصر الخلافة.

تقدم جيش المأمون نحو بغداد فحاصرها خمسة عشر شهرًا وضربها بالمجانيق، حتى أصيبت بأضرار بالغة وتهدمت أسوارها وأصابها الخراب والدمار وسادت فيها الفوضى وعمت المجاعات، حتى اضطر الأمين إلى بيع ما في خزائنه للإنفاق على جنوده وأتباعه، وبدأت المدينة تتهاوى حتى سقطت أمام جنود المأمون، وتم القبض على الأمين ووضعه في السجن، وفي ليلة الخامس والعشرين من شهر الله المحرم، دخل على الأمين في محبسه جماعةٌ من الفرس فقتلوه ومثلوا بجثته، وانتقلت الخلافة إلى أخيه المأمون بعد نحو خمسة أعوام من الصراع المرير والدامي بين الأخوين.

لعل السبب الأول في فتنة الأمين والمأمون، هو الصراع الخفي بين العرب والفرس على السلطة؛ فالأمين يمثل العرب، بينما يمثل المأمون الفرس، وكل طرف يرغب في بسط هيمنته وسلطانه على أرجاء البلاد، لذلك كان إيقاد الفتنة وتأجيجها بين الأخين، حتى يضمن كل طرف فوزه بتلك المعركة التي لم يخسر فيها غير الأمين والمأمون فقط.